المحاضرة الخامسة

موقف علماء العربية من اللهجات، ومصادر دراسة اللهجات العربية القديمة.

أولاً: موقف علماء العربية من اللهجات.

لا شكَّ في أنَّ المصدر الأول للهجات هي القبائل التي أُخِذَت عنها تلك اللهجات ، وكان لعلماء العربية مقاييس اعتمدوا الأخذ بموجبها عن قبائل معيَّنة[١] فأكثر ما أخذوا اللغة عن قيس و تميم و أسد فإنَّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أُخِذَ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب وفي التصريف ، ثم هُذَيل وبعض كنانة و بعض الطائيين ، وقدَّموا على هؤلاء لغة الحجاز ؛ لأنهم كانوا يرون أنَّ قريشًا أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ و أسهلها على اللسان عند النطق بها و أحسنها مسموعًا و إبانة عمَّا في النفس[٢].

و استبعدوا قبائل لم يأخذوا منها مثل: لخم وجذام وقضاعة وغسَّان وإياد وتغلب وبكر وعبد القيس وأزد عمان وأهل اليمن وبني حنيفة وثقيف. فضيَّقوا على أنفسهم متَّسعًا كما أنَّ اهتمامهم بلهجة الحجاز وتميم ضيَّع عليهم لهجات كثيرة أخرى[٣].

ومع كل هذه القيود التي وضعوها فإننا نجد لهجات القبائل التي رفضوا الأخذ منها متمثلة في المصادر العربية الموجودة بين أيدينا.

---

(١) ولكن هذه القبائل التي أخذوا منها لا تُمثِّل العربية تمثيلًا كاملًا.

(٢) بل يلاحظ أنهم رأوا أنه كلما قربت القبيلة من بيئة قريش كانت أقرب إلى الفصاحة و إلى الأخذ بكلامها ، وعلى قدر توغُّل القبيلة في البداوة تكون فصاحتها.

(٣) ذكر الباحثون أنَّ البصريين هم الذين قيَّدوا جمع مادتهم اللغوية بقبائل معيَّنة للأخذ منها وتركوا ما عداها ، محتجين بفساد لغتها ، وكانوا يسمون هذه القبائل في اللغات الشاذة التي لا يُعمَل بها ، أما الكوفيون فإنهم كانوا يوثقون كل العرب على السواء ، ويعدون ما ورد عنهم حجة فيعتدون بأقوالهم ويؤسسون عليها نحوهم وقواعدهم. فالكوفيون وسَّعُوا الدائرة فأخذوا عن قبائل لم يرضَ البصريون أن يأخذوا منها.
تنبيه: يلاحظ أنَّ علماء العربية خلطوا بين اللهجات عند جمعهم لها.

والناظر في اللهجات التي وصلت إلينا يلاحظ أنَّ العلماء تعاملوا معها على النحو الآتي:

١. **الموقف الأول:** هو أن يذكر اللغوي أو النحوي عدة لهجات دون أن يفضِّل إحداهما على الأخرى، من ذلك مثلًا ما ذكره الخليل قائلًا: ((وقد وَجَعَ فلانٌ رأسه أو بطنه ، وفلانٌ يَوْجَعُ رأسه، وفيه ثلاث لغات: يَوْجَعُ و يَيْجَعُ و يَاجَعُ، ومنهم من يكسر الياء فيقول: يِيجَعُ ، وكذلك تقول: أنا إيجَعُ وأنتَ تِيجَعُ))[٤].

٢. **الموقف الثاني:** المفاضلة بين اللهجات

وفيه يذكر اللغويون أو النحويون اللهجتين ثم يفاضلون بينهما ومثال ذلك قال الخليل: ((لَصِقَ يَلصَقُ لُصُوقًا، لغةُ تميم، ولَسِقَ أحسنُ لقَيسٍ، ولَزِقَ لربيعة وهي أقبحها...))[٥] .

٣. **الموقف الثالث:** الحكم برداءة اللهجات

وصفت طائفة من اللغويين والنحويين ظواهر لهجية عدَّة بأنَّها رديئة وقبيحة... وغير ذلك من الأوصاف التي حفلت بها مصادر دراسة اللهجات. ومثال ذلك قال الخليل: ((...رجلٌ كسلانٌ، وامرأة كَسْلَى، وكسلانة، لغة رديئة))[٦]. وقال أيضًا: ((كالَ البُرَّ يكيلُ كَيلًا والبُرُّ مَكِيلٌ، ويجوز في القياس: مَكيُول، ولغة بني أسد مَكُول وهي لغة رديئة، ولغة أردأ: مُكال))[٧].

ثانياً: مصادر دراسة اللهجات العربية القديمة.

لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ اللغويين الأقدمين لم يعرضوا اللهجات العربية القديمة في العصور المختلفة عرضًا مفصَّلًا لنقف على الخصائص التعبيرية والصوتية لتلك اللهجات، فلم نعرف كتابًا واحدًا تخصَّصَ في دراسة اللهجات العربية القديمة، لكن كتب التراجم تشير إلى أنهم عرفوا نوعًا من الكتب أطلقوا عليها كتب اللغات، منها:

---

(٤) العين: ١٨٦/٢ مادة (وجع) .
(٥) العين: ٦٤/٥ مادة (لصق) .
(٦) العين: ٣١٠/٥ مادة (كسل) .
(٧) العين: ٤٠٦/٥ مادة (كيل) .

١. اللغات، ليونس بن حبيب (١٨٢هـ)
٢. اللغات، للفرَّاء (٢٠٧هـ)
٣. اللغات، لأبي عبيدة (٢١٠هـ)
٤. اللغات، لأبي زيد (٢١٥)
٥. اللغات للأصمعي (٢١٦هـ)
٦. السبب في حصر لغات العرب، لحسين بن مهذب المصري (٦٥٠هـ) ... وغيرها

وكل هذه الكتب التي تعد أصولًا للهجات القبائل العربية لم تصل إلينا إلى كتابة هذه السطور[٨]. وقد وصلت إلينا نصوص منثورة[٩] من هذه الكتب في المعجمات العربية واتضح منها أنها كانت نوعًا من المعجمات وأنَّ مؤلفيها لم يكونوا يهتمون إلا في القليل بعزو اللهجات إلى أصحابها.

وتذكر كتب التراجم أيضًا أنهم ألَّفوا في نوع أخص من ذلك وهو كتب اللغات في القرآن، منها:

١. لغات القرآن للفراء[١٠].
٢. لغات القرآن لأبي زيد.
٣. لغات القرآن للأصمعي... وغيرها.

ولم يصل إلينا منها إلا كتابان، **أحدهما:** لأبي عبيد القاسم بن سلَّام (٢١٤هـ) بعنوان (ما ورد في القرآن الكريم من لغات القبائل) .

والآخر: كتاب اللغات في القرآن، أخبر به إسماعيل بن عمرو المقرئ (٤٢٩هـ).

(٨) لذلك قال بعض الباحثين: لا نعلم إن كانت هذه الكتب مؤلفات في اللهجات أو كانت نوعًا من المعاجم.
(٩) من ذلك ما نقله ابن دريد في معجمه جمهرة اللغة من كتاب اللغات لأبي زيد الأنصاري ((يقال: النُّكر والنَّكْر ، والفَكْر والفِكْر والفِكْرة ، ويقال: سَرَقَ سَرْقًا وسَرَقًا وسَرِقًا)) . يُنظر: جمهرة اللغة: ١٢٩٥/٣.
(١٠) عثر مؤخرًا أحد الباحثين على نسخة منه، وهي ناقصة.

والكتابان يتفقان في المنهج فهما يتناولان اللهجات على المستوى الدلالي، من نحو (رغدًا) الخصب بلغة طيئ، و(الصاعقة) الموت بلغة عُمان...إلخ.

وليس فيهما إلا قليل جدًا على المستوى الصوتي من نحو (قرَّح) بالفتح لغة الحجاز، وبالضم لغة تميم. فهذان الكتابان يهتمان بالنواحي الدلالية أكثر من غيرها.

استقاء اللهجات العربية القديمة منها، وأهم مصادر دراسة هذه اللهجات هي:

١. كتب القراءات القرآنية متواترها وشاذها، وكتب الاحتجاج بها.
٢. كتب تفسير القرآن.
٣. كتب معاني القرآن وإعرابه.
٤. المعاجم اللغوية العامة: وهي مصدر مهم لدراسة اللهجات، ولكن كثيرًا منها لم يهتم بعزوها إلى قبائلها بل يكتفون بقولهم: لغة فيه عند بعض العرب... إلخ.
٥. المعاجم اللغوية الخاصة: مثل كتاب المطر لأبي زيد وغيره كثير.
٦. كتب النوادر والأضداد والمذكر والمؤنث والمشترك والمترادف.
٧. كتب اللغة والنحو والصرف.
٨. كتب الأدب بما في ذلك شروح الدواوين.
٩. كتب الأمثال.
١٠. دواوين شعراء القبيلة[١١].
١١. كتب الحديث النبوي وشروحها [وكتب غريب الحديث وإعراب الحديث أيضًا].

(١١) لتفصيل الكلام على ذلك راجع كتاب اللهجات العربية في التراث ١/١٠٣-٢٣١ لأحمد علم الدين الجندي.